في "ابن تيمية" وموقفه البطولي

معركة المسلمين ضد التتار

بقلم : سعد صادق محمد

■■ لم يكن شيخ الإسلام الإمام أحمد بن تيمية من المشتغلين في حقل العلوم الإسلامية ، واللغة العربية ، العارفين بمسائل الفلسفة والمنطق والكلام فحسب ، بل كان من حملة السيف ، العاملين في حقل الجهاد للذود عن الديار الإسلامية ضد الأعداء المتربصين بالإسلام وأهله ■■

عصر ابن تيمية . .

عاش هذا الإمام الجليل في عصر متلاطم بأمواج من الضعف والفساد والتمزق في النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية ، وكان من نتائج هذا الضعف والتمزق أن تعرضت البلاد الإسلامية لخطرين عظيمين هما :

خطر ظهور التتار وزحفهم على الشام ومصر ، وخطر زحف الإفرنج إلى هذين الإقليمين ، ويهمنا الآن خطر ظهور التتار لأنه موضوع مقالنا هذا .

يصف المؤرخون حادثة ظهور التتار ، بأنها حادثة عظيمة ، ومصيبة كبرى عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، وأنها عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، وأن العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى وقت ظهور التتار ، لم يبل بمثلها لأن التواريخ لم تذكر في صفحاتها حادثة من حوادث الزمن تقاربها » .

التتار في دمشق . . .

خرج التتار من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر : سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ، ويعملون بأهلها الفظائع ، ثم تغير طائفة منهم على خراسان فيعمونها تخريباً ونهباً وقتلاً ، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان ثم يزحفون على بغداد ، فيقتلون أكثر أهلها ، ويهددون حكامها ، ويخربون ديارها ، ويستحيون نساءها ، وينشرون الرعب والفزع في كل مكان ، ويلقون بالمؤلفات الإسلامية ، والتراث العربي في نهر دجلة ، ويعبرون عليها ، ويزيلون بذلك معالم الحضارة العربية[1] .

لقد وقف التتار على أبواب دمشق ، ودب الذعر في نفوس الأهالي ، واضطر أكثرهم إلى الهرب ... حتى أولو الأمر والعلماء ، كل هؤلاء أخذوا يبحثون عن مهرب من الشر التتاري الزاحف عليهم .. والتماساً للنجاة ، تاركين البلاد ينهبها العدو ولم يبق بمدينة دمشق من يواجه التتار سوى نفر قليل من العلماء وعلى رأسهم ابن تيمية .

ابن تيمية المجاهد . . .

كان أحمد بن تيمية عالماً بأن الجهاد في سبيل الله من أفضل القربات إلى الله ، وأنه فرض على القادر عليه بنفسه وماله ، موقناً بأن الله لا يضيع أجر المجاهدين العاملين ، وأنه تعالى فضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً .

كان ابن تيمية واحداً من أولئك الأفذاذ الذين بلغوا شأواً بعيداً في ميدان العلم والعمل ، فكما كان « صاحب قلم » كان أيضاً « حامل سيف » .

لم يكن هذا العالم الجليل يعيش في برج عاجي منطوياً على نفسه ، منفصلاً عن مجتمعه ، بل كان عظيم التجاوب معه ، شديد الإحساس بحقه عليه ، لهذا لم يتردد ابن تيمية في أن يكون في طليعة المجاهدين ضد التتار بنفسه .. فقد رأى الرجل أن التتار قد اقتحموا ديار الشام كالطوفان المدمر ، أو كالسيل العرم ، وأنهم خطر على الإسلام والمسلمين ، **لهذا خرج ابن تيمية للدفاع عن شرف الإسلام بإيمانه وسيفه للذود عن حمى دين الله وشريعته .**

وخلال هذا الجو المضطرب بالذعر والخوف طاف ابن تيمية بالطرقات والمساجد يحض الناس على الجهاد ، ويحرضهم على قتال العدو .

وأمر أتباعه من الشباب أن ينهضوا للقبض على اللصوص الذين هربوا من السجون خلال الاضطرابات التي أحدثها الغزو التتري ، ليسود الأمن في بقاع دمشق ، كما أمر هؤلاء الأتباع أن يقوموا بحراسة مداخل المدينة للحيلولة دون فرار ضعفاء الإيمان من بطش التتار .

وكان الشيخ يرى أن التتار خوارج ، وقد أوجب الله قتالهم ، وقاتل علي ، رضي الله عنه ، أمثالهم ، كما أن النبي ﷺ أوجب قتال من استحلوا دماء المسلمين ؛ وهؤلاء التتار فعلوا ذلك .

طاف الشيخ ابن تيمية بتجار السلاح ليفتيهم أن مقاومة التتار جهاد واجب في سبيل الله ، وأن عليهم الجهاد في سبيل الله بأموالهم ، ولهم أجر

المجاهدين بأنفسهم ، فليبذلوا السلاح لمن يريد بلا مقابل ، أو بثمن بخس .

وفي ساعات قلائل استطاع ابن تيمية أن يستنفر سواد الناس ، فاغلقوا ابواب دمشق ، ووقفوا دونها مسلحين ما استطاعوا ، وعلى راسهم اتباعه ، كذلك اغلقت الحانات ودور الفساد .

ثم مضى **ابن تيمية** يبحث عن الفقهاء واهل الشورى والأعيان والأمراء وولاة الأمر . فوجدهم خارج دمشق ، ولم يجد من يشاوره من هؤلاء ، حيث فروا جميعاً خارج دمشق وتركوا الرعية وحدها تواجه التتار ، حتى الفقهاء والعلماء الذين يناصبونه العداء بسبب فتاواه وما يعتقده لم يجدهم في مواجهة العدو .. وكان على رأس هؤلاء الهاربين ، **سيف الدين المنصوري** ، الذي تعاون مع أعداء **ابن تيمية** من الفقهاء ، وكان من أصحاب السطوة والنفوذ في دمشق .

وأرسل **ابن تيمية** إلى قائد القلعة بعدم الاستسلام للتتار ولو هدموا القلعة عليه ، فأذعن القائد لأمر **ابن تيمية** ولم يستسلم .

وتشاور **ابن تيمية** ومن بقي معه في المدينة في أمر التتار ، فوجدوهم يستطيعون محاصرة دمشق حتى يهلك اهلها جوعاً وعطشاً ، كما انهم يمكنهم بما يملكون من عتاد ورجال أن يدمروها ، فقرر **ابن تيمية** الدفاع عن المدينة وعدم الاستسلام ، وانه يجب على القوم أن يستميتوا في الذود عن المدينة بما معهم من حراب وسيوف وغيرها من آلات الحرب .. ستقاوم دمشق ، وتظل تقاوم إلى أن تنال إحدى الحسنيين ..

ابن تيمية عند ملك التتار . .

تحدث **ابن تيمية** إلى من معه من قومه في أمر التتار ، ففزع أكثرهم من لقاء **الملك قازان** ، وخشوا أن تسقط رؤوسهم إذا ذهبوا مع **ابن تيمية** لمواجهة الملك .. وراوا أن هؤلاء التتار وحوش ضارية ، ومن المغامرة مواجهتهم ، ولكن **ابن تيمية** رأى ، إن كانت مواجهة هذا الملك سترفع البلاء الواقع على دمشق ، فهو جهاد في سبيل الله . وقال :

« ... **اتخافون القتل إن ذهبتم إلى قازان ، فماذا يحدث إن بقيتم ؟.. ستهتك حرماتكم وانتم تنظرون ، ويفسق ببناتكم وولدانكم وانتم صاغرون . ثم ستقتلون ..** » .

ورأى **ابن تيمية** أن يركب إلى **قازان ملك التتار** عسى أن يكشف الله عن المدينة بأسه فإن أبى إلا الحرب ، فستقاتل دمشق وتدافع عن نفسها حتى الموت .

وخرج **ابن تيمية** مع بعض المشايخ والأعيان لمقابلة قازان ، وعندما بلغوا معسكره تقدمهم **ابن تيمية** .

وقبل مقابلة هذا الملك الرعديد ، نظر **ابن تيمية** في وجوه أصحابه فوجدها مضطربة ، فدعا الله أن يثبت اقدامهم ، وأن يزيل عن قلوبهم الوجل .

وقال **ابن تيمية** وهو يتقدم نحو ملك التتار : **تقدموا ورائي ، فنحن اصحاب حق والله معنا ، وهو خير حافظ ، وهو ارحم الراحمين** ..

وتقدم الشيخ **ابن تيمية** نحو ملك التتار ، ففوجيء بمنظر أدهشه وآلمه ، إذ رأى عدداً من علماء دمشق وأمرائها ، ومنهم : **سيف الدين المنصوري** عند ملك التتار ، فقد كانوا بالأمس قوة ، وكانوا يعلنونها حرباً مريرة عليه بسبب فتاواه الدينية .. وهؤلاء الذين كانوا بالأمس غلاظاً شداداً تحولوا اليوم - وأمام ملك التتار - إلى أقزام ضعفاء اذلاء ، يقفون أمام هذا الملك يداهنون ، ويطأطئون الرؤوس استسلاماً وخوراً ومهانة .

لقد وقف **الشيخ ابن تيمية** أمام ملك التتار يتحدث إليه في قوة المؤمن وصلابته ، يدافع عن الوطن الإسلامي ومقدساته ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى وسلم على نبي الهدى والحق ، ثم أخذ يشرح قول الله في الفئة التي تبغي على غيرها ، ورأى أن قتالها جهاد في سبيل الله ، والتتار حين يبغون على فئة مسلمة طمعاً في جاه الدنيا ، استحقوا القتال .

ويقول القاضي شهاب الدين ابو العباس احمد في ترجمته لابن تيمية في وصفه لهذه المقابلة :

« ... **جلس الشيخ إلى السلطان قازان حيث تجم الأسود في آجامها ، وتسقط القلوب داخل اجسامها خوفاً من ذلك السبع المغتال . والنمرود المحتال ، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال ، جلس إليه وكلمه كلاماً مؤثراً جعله يعدل عن عدوانه** ... » .

ملك التتار يستمع إلى ابن تيمية

عجب ملك التتار لهذا الشيخ الأعزل وهو يتحدث إليه في قوة وثبات وجراة حتى لكأنه هو الأسير الأعزل ، والشيخ هو صاحب السلطان والهيلمان .. إن الشيخ لا يزال في قبضة **قازان** ، ويستطيع أن يأمر رجاله بقتله . والجيوش من حول

معركة المسلمين ضد التتار

سلطان التتار ينتظرون منه إشارة لما سيفعله معه .. فما الذي يمسك يديه عن ذلك ؟! إن ملك التتار يملك من الجيوش ما يثير الرعب في نفس **ابن تيمية** ، وفي نفوس غيره من الناس ، بينما لا يملك **ابن تيمية** المؤمن إلا سلاح الإيمان والحق .. إنه لسر عظيم أن يصنع الشيخ بالسلطان هذا الفعل ، وكأنه سحره ، فشلّ قوته ، واوهن سلطانه .

واقبل سلطان التتار على **ابن تيمية** مصغياً لحديثه ، إذ اوقع الله عليه المهابة والخوف من قولة الحق التي نطق بها ابن تيمية ، وقال **قازان** :

« **إنه لم ير مثل الشيخ ابن تيمية** » .

ابن تيمية ينتصر على ملك التتار !!

وأراد السلطان أن يتقرب إلى الشيخ ، فأمر بإحضار الطعام .. وجلس الجميع يأكلون ما عدا **ابن تيمية** الذي رفض أن يأكل مع ملك التتار .

والتفت الملك ناحية **ابن تيمية** وساله عن سبب امتناعه عن تناول الطعام ، واجاب الشيخ :

« **كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه مما قطعتم من اشجار الناس** » . فكف السلطان عن الطعام ، ونظر إلى الشيخ ، وساد صمت قاتل ، وخشي الذين كانوا مع **الشيخ ابن تيمية** أن يعقب هذا الصمت ثورة من الملك على الشيخ ، فتضرب اعناقهم معه .

وفجأة خرج الملك عن صمته ، وطمأن الشيخ بإجابته إلى طلبه ، فدعا الشيخ :

« **اللهم إن كنت تعلم انه قائل لتكون كلمة الله هي العليا ، فانصره ، وإن كان للملك والدنيا والتكاثر ، فان تفعل به وتصنع** » .

عاد **ابن تيمية** إلى دمشق ، مسروراً بما حققه من نصر ، فأمن الناس وحمل إليهم ما وعده به ملك التتار من أنه لن يدخل دمشق ، وأنه سيرحل عن الشام كله .

ومن جهة اخرى اجتمع ملك التتار بقواده ، ثم ارسل إلى اهل دمشق يؤمنهم على حياتهم واموالهم واعراضهم ، ولكنه طلب منهم أن يسلموه ما عندهم من اسلحة وخيول وابوال ، وهنا نجد **ابن تيمية** يحرض اهل دمشق على عدم تسليم ملك التتار شيئاً مما طلب ، إذ وعده الملك بعدم دخول دمشق ، ولم يشترط عليه شيئاً .

وبعد أيام انطلق بعض جنود **قازان** الذي لم يف بوعده ، إذ هاجم جنوده اطراف الشام ، واحرقوا واتلفوا وقتلوا الرجال وسبوا النساء .

وخرج **ابن تيمية** مرة اخرى إلى **قازان** يشكو إليه عدوان جنوده على دمشق بعد أن وعده بعدم دخولها .

وما زال **ابن تيمية** الشجاع يملك التتار حتى وعده بأنه سينسحب الآن بجيشه ، فطالبه بفك الأسرى من المسلمين ، وكذلك النصارى واليهود ، لأنهم من أهل الشام ، ومن أهل الذمة ففعل ملك التتار ، وترك الشام .

الاحتفاء بالشيخ المنتصر ..

عاد الشيخ إلى دمشق فدخلها ، وبشر اهلها بانسحاب التتار ، وضجت دمشق بالفرح والسرور ، وعاشت اياماً تحتفل بانتصارها على التتار دون أن تريق من دماء بنيها نقطة واحدة ، كما اتجهت القلوب بالإكبار للشيخ والإقرار بشجاعته ، فخطب في الناس أن ينصرفوا إلى أعمالهم ، وانصرف هو إلى متابعة الدرس والوعظ والقراءة والكتابة ، وجمع الأحاديث التي جاءت عن الجهاد ليقولها لمن يحضرون درسه ، أما العلماء والفقهاء ، وأولو الأمر الذين كانوا قد هربوا من ساحة الجهاد ، ومواجهة التتار ، فقد عادوا منكسرين .

وهدأت عاصفة هجوم الأعداء عليه ، ولم يستطع احد منهم أن يهاجمه ، او يشي به عند الحاكم ، فقد غدا **الشيخ ابن تيمية** ملء الأسماع والأبصار والقلوب بعد أن استطاع بقوة إيمانه ، ورباطة جاشه ، أن يوقف زحف التتار عن دمشق ، والديار الإسلامية .

المسلمون يستعدون لحرب التتار ..

وعلم الشيخ من مصادره الخاصة أن التتار سيعودون لمهاجمة دمشق ، وأن انسحابهم من الشام وادعاءهم الصلح كان خدعة ، ليستعدوا للحرب ، ويحشدوا لها ما يلزمها من عتاد ورجال .

لذلك تقابل الشيخ مع **السلطان الناصر محمد بن قلاوون** صاحب مصر والشام ، وطلب منه أن تستعد دمشق بالسلاح والرجال ، فالتتار لا ريب سيزحفون على دمشق يوم يستكملون استعدادهم . فلابد من مقابلتهم بالقوة من قبل جيش الشام ومصر ، ولابد أن تكون الضربة قاضية ، وأخذ السلطان برأي الشيخ وأعد العدة لملاقاة التتار ، فقد وعى السلطان كثيراً من الدروس الماضية ، وانضجته المحن ومصاولة الأحداث ، إذ مرت به أحداث مروعة ، ارتكبها التتار ضد بغداد ، وضد **الخليفة العباسي** ، وضد أهل المدينة ، حتى وصف المؤرخون أعمالهم بأنها « **مصيبة كبرى .. عقمت الأيام والليالي عن مثلها** » .. كذلك مرّ على السلطان كيف قاد **سيف الدين قطز** جيشاً عام ١٢٦٠م ، وهزم المغول ، وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً في موقعة « **عين جالوت** » ، وكيف حارب **الظاهر بيبرس** المغول وانتصر عليهم ... كل هذه

الأحداث العظيمة مرت على السلطان **محمد بن قلاوون** .. فقرر أن يجابه التتار ، لذلك استنفر سائر المسلمين أن يهبوا للانضمام إلى جيش مصر والشام للخروج لملاقاة التتار تحت قيادة أمير المؤمنين .

أما **ابن تيمية** فقد واصل وعظ الناس في المسجد الأموي ، وحثهم على الجهاد ، وتذكيرهم بأن جهاد التتار هو جهاد في سبيل الله ، وفيه حماية لأرواحهم وأموالهم .

وأراد قوم اللجاجة في أمر فرعي ، تاركين الحديث عن معركة الموت والحياة التي يواجهها المسلمون ضد التتار .. ذهب رجال إلى **الشيخ ابن تيمية** يسألونه الرأي في قتال التتار .. قالوا : **كيف نقاتلهم وهم ليسوا كفاراً ؟** . وأجابهم الشيخ :

بأن الله أمر بقتال الكفار ، ليس لأنهم كفار ، ولكنهم اعتدوا ، فالعدوان .. لا الكفر هو سبب القتال ، والله أمرنا بعدم إكراه أحد على الإسلام ﴿ ... لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ (البقرة : ٢٥٦) ، وأمرنا بالقتال لرد العدوان فقط ﴿ ... وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ (البقرة : ١٩٠) ولو كان القتال غايته : أن يسلم الكافر ، لكان هذا أعظم الإكراه على الدين ..

هكذا كان رد الشيخ على من سألوه رأيه في التتار ، ولكن القوم لم يقتنعوا برأي الشيخ ، وأخذوا يترددون على غيره من الفقهاء يسألونهم الرأي ، إضاعة الوقت في مثل هذه المسائل غير المجدية ، واستطاع **ابن تيمية** إسكاتهم حتى لا تحدث فتنة ، فينشغلوا بها وينصرفوا عن المعركة ..

كانت الاجتماعات تعقد للاستعداد للقتال ، وفي هذه الاجتماعات كان الشيخ يخطب في الحاضرين ويحضهم على القتال ، ويقرأ عليهم آيات الله في الجهاد ، ويشرح واجب المسلمين فيمن يعتدون على المسلمين ويغزون ديارهم لتخريبها .

خروج المسلمين لقتال التتار ..

وحين جاء وقت المعركة .. خرج جيش الشام بقيادة نائب السلطان ، وخرج عسكر مصر يقودهم السلطان وحوله القواد والأمراء وكانوا ذوي شدة وبأس .. وأخذ القراء يتلون القرآن ويرددون آيات يستثيرون بها حماسة الجند ، بينما حممة الخيول ، وصليل السيوف وهتافات .. « **الله أكبر** » ترج الآفاق .

ووسط هذا الحشد العظيم يقف **الشيخ ابن تيمية** على صهوة جواده في ملابس عسكرية يشد أزر الجميع ، ويحث الناس على قتال التتار لأنهم معتدون ، جاؤوا لغزو الديار الإسلامية ، فيجب جهادهم ، والله وعد المجاهدين بالنصر .

وأخذ الشيخ يطوف على العسكر وهو يصيح : « **جاهدوا في سبيل الله بعزيمة سلفكم الصالح .. وإنكم منصورون** » .

والتقى الجمعان .. في مكان يسمى « **شقحب** » ونشط المسلمون في ضرب العدو ، وحارب **ابن تيمية** وكأنه فارس حاذق حتى لفت بجهاده وبسالته وشجاعته أنظار فرسان المماليك ، وقالوا :

أيكون فقيه وحرفته الكتابة والخطابة أجرأ منهم في الحرب ، وهي حرفتهم ؟

وحمل المدافعون على العدو التتاري ، وصوت الشيخ ينادي ويمنحهم الثقة في نصر الله ، واستمر القتال أربعة أيام من شهر رمضان ، وأدرك التتار أنهم سيلاقون هزيمة لم يعرفوها منذ موقعة « **عين جالوت** » فلجأوا إلى التلال ، واختفوا خلفها ، وعندما أسدل الليل أستاره على الكون احتموا بجنح الظلام .

انتصار المسلمين ...

وتوقف القتال في انتظار ضوء النهار ، وهنا لجأ التتار إلى حيلة ماكرة ، فقد أرسلوا إلى دمشق بعض أعوانهم الباطنية ليشيعوا في أهل المدينة أن عسكر الشام قد انهزموا وكان ذلك بقصد قتل الروح المعنوية عند الأهالي ، وكسب المعركة بالحرب النفسية . وفطن **ابن تيمية** إلى حيلة التتار ، فكشف لهم عنها ، وأخذ يبين للناس حكم الشرع فيمن يفر من ميدان الجهاد ، كما أخذ يبث فيهم الثقة ، ويؤكد لهم أن النصر قريب ما داموا متمسكين بالإيمان ، ومعتصمين بحبل الله .. وطلب من السلطان أن يرسل إلى دمشق من يدحض أكذوبة التتار ويطمئنهم أن الجيش بخير ، وأن النصر آت .

وحين لاح شعاع الفجر ، قاد السلطان الجيوش إلى التل الذي اختفى فيه التتار فأعملوا السيوف في العدو ، وعندما رأى التتار أنهم محاطون ، لاذوا بالفرار ، ولكن **الشيخ ابن تيمية** صاح في الجنود ألا يتركوهم ، فطاردوهم ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر الباقون ، وغنموا منهم مغانم كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر بقيادة السلطان والخليفة ، والفقيه الفارس **ابن تيمية** .

واستقبلت دمشق جيشها المنتصر بالأفراح والتهليل ..

لقد نصر الله جنده بإيمان الرجال ، وصلابة الأبطال ، وكان **لابن تيمية** موقفه البطولي ، ودوره البارز في هذا الانتصار .

رحم الله الإمام ابن تيمية .. وأثابه خيراً عما قدم .

المصادر :

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير .